

يسوع، كريستوس أو «المبدأ المسيحاني»، والمسيحية

مجموعة بلافاتسكي – لندن

الجزء الأول

1. مقدمة

بين دارسي التعاليم الأصلية للحركة النيوصوفية، ولا سيما أولئك الملمين تماماً بكتابات "ه. ب. بلافاتسكي"، قد يصادف المرء أحياناً أفكاراً حول يسوع من قبيل: "يسوع لم يوجد قط في الواقع، وكان مجرد رمز"، أو "كان يسوع وعمله جيدين، لكنهما لم يحملأ أهمية حقيقية تُذكر"، أو -وهو أمر نادر الحدوث- "النيو صوفيا تنتقد يسوع، ولا مكان له فيها". إن هذه الفكرة الأخيرة خاطئة تماماً، ومع ذلك فقد صادفناها -وإن كان ذلك في حالات نادرة جداً- على لسان أشخاص يزعمون أنهم من طلاب "ه. ب. بلافاتسكي". أما الفكرتان الأوليان، اللتان تظهران بشكل أكثر تكراراً، فيبدو أنهما ناتجتان عن دراسة غير دقيقة أو غير مكتملة لما طرحته "بلافاتسكي" ومعلموها من "الحكماء" -الذين نطلق عليهم اسم "المهاتما" أو "معلمي الحكمة"- حول هذا الموضوع.

عندما يقرأ المرء بتمعن كل ما يلي، قد يتضح له السبب الذي دفع ببعض الأشخاص إلى التوصل لمثل هذه الاستنتاجات، لكن

سيُتضح له أيضاً أن هذه الاستنتاجات خاطئة، وأنها لا تمثل ما تُعلّمه الثيوصوفيا في حقيقتها.

صحيحٌ أن بلافاتسكي تذكر في كتابها الأول «إيزيس تكشف النقاب» ما يلي: «مهما كانت العقيدة، فإذا كان العابد مخلصاً، ينبغي احترامها في حضوره. وإذا كنا لا نؤمن بأن يسوع هو الله، فإننا نُجلّه كإنسان. ومثل هذا الشعور يكرّمه أكثر مما لو نسبنا إليه قوى الذات العليا وشخصيتها، مع افتراض أنه -في الوقت ذاته- قد مثل مسرحية عبثية أمام البشرية؛ إذ إن رسالته، في نهاية المطاف، لا تعدو كونها فشلاً ذريعاً».

(المجلد الثاني، ص 530).

لكن هيلينا بتروفنا بلافاتسكي لا تعزو ذلك «الفشل» إلى يسوع، بل إلى أتباعه على مدى الألفي عام الماضية، ولا سيما ما يُعرف بالكنائس المسيحية. فمهما بلغ إتقان المعلم العظيم في أداء رسالته، تظل النتيجة النهائية رهناً بأيدي أولئك الذين يأتون من بعده..

على الرغم من أن هذه المجموعة مطولة، إلا أنها لا تمثل سوى مختارات محدودة من بين العديد من الأقوال المتعلقة بهذه المواضيع، والتي خطتها يراعاة "ه. ب. بلافاتسكي" أو وردت على لسانها. ونأمل أن تُقدّم هذه المجموعة نظرة عامة جيدة وأساساً للفهم، وأن تُلهم البعض للبحث بأنفسهم عما طرحته "بلافاتسكي" من أفكار ثانية. لقد حرصنا على تقليل كلماتنا الخاصة إلى أدنى حد ممكن، ولم نصف تعليقات إلا حيث رأينا أنها تساعد في تقديم المزيد من الشرح والتوضيح، لا

سيما لأولئك الذين قد لا يكونون على دراية كافية بعدُ بالتفاصيل الدقيقة لـ "الفلسفة الباطنية" التي نطلق عليها اسم النيوصوفيا.

2. عظمة يسوع وطبيعته

كيف يوجّه الحكماء أرواح البشر؟

يتم ذلك بطرق شتى، لكن أهمها هو التوجه المباشر إلى أرواح البشر في العالم الروحي. قد يصعب عليك استيعاب هذا الأمر، لكن ثمة جانباً يمكن فهمه بوضوح: ففي فترات منتظمة، يسعون إلى منح العالم فهماً صحيحاً للأمور الروحية؛ إذ يتقدم أحد أفرادهم لتعليم الجماهير، ويُخلّد ذكره في التراث بوصفه مؤسساً لدينٍ ما. لقد كان كريشنا معلماً من هذا النوع، وكذلك كان زرادشت، وبوذا، وشانكاراشاريا -ذلك الحكيم العظيم من جنوب الهند-، وكذلك كان الناصري [أي يسوع الناصري].

هل لدى الحكماء أي سجلات سرية عن حياته؟

أجابت بلافاتسكي قائلة: «لا بد أنهم يملكون ذلك؛ فهم يحتفظون بسجلات لحياة جميع "المُستيرين". ذات مرة، كنت في معبدٍ يقع داخل كهفٍ ضخم في جبال الهيمالايا، برفقة مُعلّمي [أي المُعلّم "م" أو "المهاتما موريا"]. كان هناك العديد من التماثيل لأشخاصٍ بلغوا مراتب روحية عليا؛ فأشار إلى أحدها وقال: "هذا هو الشخص الذي تدعونه يسوع. ونحن

نَعَدَهُ واحداً من أعظمنا». (من نص «لقاء مع ه. ب. ب.» بقلم تشارلز جونستون).

ساور أقارب "ه. ب. ب." المقربون، وبشكل طبيعي، مخاوف كبيرة بشأن طبيعة هذا المعلم الهندي الغامض [أي مُعَلِّمُهَا الروحي، "المعلم موريا المشار إليه آنفاً] إذ لم يسعهم سوى النظر إليه باعتباره "ساحراً وثنياً" لا أكثر. وقد بذلت مدام بلافاتسكي جهوداً حثيثة لدحض هذه النظرة، مؤكدةً لهم أن مُعَلِّمُهَا يَكُنْ احتراماً عميقاً لجوهر تعاليم المسيح. وكانت قد أمضت ذات مرة سبعة أسابيع في غابة غير بعيدة عن جبال كاراكوروم [ملاحظة: من الناحية الجغرافية، تقع سلسلة جبال كاراكوروم إلى الشمال من جبال الهيمالايا، وتُعدّ جزءاً من نطاق "ما وراء الهيمالايا"]، حيث عاشت في عزلة تامة عن العالم، وكان مُعَلِّمُهَا هو الوحيد الذي يزورها يومياً - دون أن توضح ما إذا كانت الزيارة تتم عبر "الجسم النوراني" أم بطريقة ثانية. وخلال وجودها هناك، عُرِضَتْ عليها في معبدٍ يقع داخل كهف مجموعة من التماثيل التي تمثل كبار المعلمين الروحيين في العالم، وكان من بينهم:

تمثال ضخم للسيد المسيح، مُصَوِّرٌ في لحظة غفرانه لمريم المجدلية؛ وغوتاما بوذا يُقدِّم الماء في كف يده لمتسوّل، بينما يظهر أناندا وهو يشرب من كفي امرأة من طبقة المنبوذين (الباريا) تعمل في البغاء.

(رسائل ه. ب. بلافاتسكي)، الجزء الثاني، جمعها ونشرها
ويليام كوان جودج، مجلة الدرب¹ يناير 1895.

يرى الثيوصوفيون في يسوع - أو في المثل الأعلى الذي
يجسده - "حكيمًا كاملاً (وهو الأسمى في عصره)"، أي كائناً
بشرياً يرتقي بمراحل بعيدة فوق عامة البشر الذين لم ينالوا
الأسرار... فبعضنا - بمن فيهم قلة من السرانيين المسيحيين
المتعلمين ضمن صفوفنا، نحن الثيوصوفيين البريطانيين - لا
يعترفون بـ «يسوع الإنجيلي» (الذي لا يعد شخصية تاريخية)،
لكنهم يؤمنون بـ «المسيح» كمثّل أعلى. أما آخرون فيميلون
إلى اعتبار أن يسوع الحقيقي هو ذلك «الحكيم» المذكور في
أقدم النصوص التلمودية وبعض الكتب المسيحية، والذي
يُعرف باسم «يشو بن بانثيرا»². (ه. ب. ب، «كلمة مع
"زيرو"»).

صحيحٌ تماماً أن هناك عدداً لا يستهان به من الأشخاص غير
المنطقيين الذين يسعون إلى تقويض الديانة الكاثوليكية
والبروتستانتية من خلال تدمير "السبب" البريء الكامن
وراءهما، ألا وهو يسوع. لكن أحداً من "الثيوصوفيين" (أتباع
الحكمة الإلهية) لا ينتمي إلى هذه الفئة. فالثيوصوفيون - سواء
أولئك الذين لم يعودوا مسيحيين، أو الذين لم يكونوا مسيحيين
قط - ينظرون إلى يسوع (أو "يهوشوع") باعتباره "مسارر"
(أي شخصاً نال أسرار المعرفة الروحية). لذا، فإن اعتراضهم

¹ The Path.

² Jeshu ben-Panthera.

ليس موجهاً ضد "حامل" هذا الاسم -الذي يرون فيه واحداً من "معلمي الحكمة"- بل ضد الاسم ذاته بعد أن شَوَّه بفعل الخيال المسيحي الزائف، وكُسيَ بأثواب وثنية استُعيرت من آلهة وثنية. وهؤلاء "الكهنة" -الذين يصفهم مراسلنا الموقر بأنهم "قتلة" و"شياطين"- هم بالضبط من ينبغي على كل ثيوصوفي حقيقي أن يكون مستعداً دائماً لمواجهةهم. وهناك قليلٌ من الثيوصوفيين من يرفضون اعتبار يسوع "ابناً لله"، أو "كريستوس"³ الذي بلغ -عبر المعاناة- حالة "المسيح"⁴ فكل ما يرفضونه هو ذلك التشويه الحديث لعقيدة قديمة جداً، وهي عقيدة اتحاد الابن بالآب؛ أو الزعم بأن هذا "الآب" كان له أي صلة بذلك الكيان العبري مزدوج الجنس (الذكر والأنثى) المعروف باسم "يهوه". (ه. ب. بلافاتسكي، "ملاحظات متنوعة" من مجلة "لوسيفر"، أغسطس 1888).

كان يسوع مسارراً (في طريق الحكمة) وحكيماً استشهد. (ه. ب. ب.)، «حقائق تكمن وراء سير الحكماء»، نُشر بعد وفاتها).

لا يعني هذا رفض "سلطة المسيح" - إذا ما نظرنا إليه كما نظرنا إليه نحن ولورانس أوليفانت⁵؛ أي باعتباره "أفاتار" (تجسيداُ إلهياً) على غرار غوتاما بوذا وغيره من الحكماء العظام الذين صاروا أوعية أو تجسيدات لـ "التأثير الإلهي"

³ Chrêstos.

⁴ Christos.

⁵ Laurence Oliphant.

الواحد. أما ما لن يقبله معظمنا أبداً، فهو ذلك المسيح الذي صورّه رينان في هيئة بشرية بحتة ("الطبيب اللطيف")، أو ذلك المسيح الذي يجمع في طياته سمات كل من توركيمادا وكالفن⁶. إن يسوع - ذلك الحكيم الذي نؤمن به - قد علّم تعاليمنا الشرقية، وعلى رأسها قانون "الكارما" و"تقمص الأرواح". وحين يتعلّم من يدعون بالمسيحيين قراءة العهد الجديد "ما بين السطور"، ستنتفتح أبصارهم، وحينها... "سيبصرون". (ه. ب. بلافاتسكي، "حول الثيوصوفيا الزائفة").

يوجد هذا «السر» - لمن يدرك معناه الصحيح - في الحوار الذي دار بين كريشنا وأرجونا، في الفصل الرابع من كتاب البهاغافاد غيتا⁷. ثم تورد بلافاتسكي الآيات 4-9 من الفصل الرابع من «البهاغافاد غيتا» وتتابع قائلة: وهكذا، فإن جميع «الأفاتارات» (التجسّدات الإلهية) هي في جوهرها واحدة؛ فهم أبناء «أبيهم» في سلالة وانحدار مباشر، حيث يصبح «الأب» - أو إحدى الشعلات السبع - هو «الابن» لفترة من الزمن، وهما في حقيقتهم كيان واحد في الأزلية. فما هو «الأب»؟ هل هو السبب المطلق لكل شيء؟ هل هو ذلك الأزل الذي لا سبر «لأغواره»؟.. كلا، قطعاً لا. إنه... ما يسميه الهندوس إيشفارا أي «الرب»... وحقاً، «من أجل خلاص الأخيار والقضاء على الشر»، ولدت شخصيات مثل غوتاما، وشانكارا، ويسوع، وغيرهم، كلّ في عصره؛ وفقاً لما جاء في النص: «أنا أولد في

⁶ Torquemada and Calvin.

كل يوغا (عصر)»، وقد جاءوا جميعاً من خلال القوة ذاتها.
(بلافاتسكي، «عقيدة الأفاتارات»، نُشر بعد وفاتها).

[يرى دارسو الفلسفة الباطنية في الحكيم الناصري
"بوديساتفا"⁷ تسري فيه روح بوذا ذاته]. (بلافاتسكي، «سر
بوذا»، نُشر بعد وفاتها).

غالباً ما يذكر أتباع الفلسفة الشيوصوفية أن يسوع، شأنه شأن
بوذا وغيرهما، بدأ كإنسان عادي تماماً مثلنا، ثم ارتقى عبر
حيوات عديدة ليصبح "حكيماً" أو معلماً عظيماً. وهذه المسألة
أكثر تعقيداً مما قد تبدو عليه للوهلة الأولى؛ فوفقاً للتعاليم
الشيوصوفية، لا يوجد كائن يُخلق كاملاً منذ البداية، بل يتحتم
على كل كائن أن ينال مكانته من خلال مسيرة تطورية طويلة
 وجهدٍ دؤوب. ومع ذلك، تشير هذه التعاليم إلى وجود كائنات
تسبق البشرية بمراحل شاسعة، لدرجة أنها لا بد أن تكون قد
بلغت أسمى درجات الكمال على كواكب ثانية، وذلك قبل وقت
طويل من نشأة كوكبنا الأرض.

تُوضّح المقتطفات التالية من كتاب "العقيدة السرية"، من بين
أمور ثانية، أن بوذا، ويسوع، وكريشنا، وزرادشت، و"آخرين
كثراً"، كانوا بالفعل آلهة أو ملائكة أو كائنات تنتمي إلى
مستوى "اللوغوس" منذ لحظة وصولهم إلى كوكبنا. ولم
يصلوا إلى هنا بصفقتهم "مجرد" معلمين، بل كتجسيدات
مباشرة لأحد "الأشعة السبعة" المنبثقة عن "اللوغوس". أو

⁷ Bodhisattva.

"أبناء الإرادة واليوغا" - الذين كثيراً ما يُشار إليهم في العقيدة السرية". ويُقال إن "المعظم الأعظم أو "التضحية العظمى"، أو "المراقب الوحيد"، أو "الكائن العجيب" (وهو سيد "شامبالا")، قد تجسد على كوكبنا خلال "العرق الجذري الثالث" (أو العرق الليموري)؛ وذلك إلى جانب "أولئك الذين يُقال إن أسمى كائنات الـ "دياني" أي الحكماء والريشي - من دورات كونية سابقة - قد تجسدوا فيهم، بهدف تشكيل مهد للبشر المتسامين (الحكماء) في المستقبل، على هذه الأرض وخلال الدورة الحالية. (بلافاتسكي، "العقيدة السرية"، المجلد الأول، ص 207). وبعبارة ثانية، فإن أسمى الكائنات في الكون تتجسد في الوقت ذاته هنا على الأرض؛ وهو أمرٌ عجيبٌ ومقدسٌ حقاً يستحق التأمل! ولكن، نظراً لأنهم - عبر تجسدهاتهم المتكررة هنا - يصبحون "ممتزجين بالمادة"، ولا يمثلون على الأرض سوى "أجزاء من جزء" مما هم عليه في حقيقتهم الكاملة، فليس من المستبعد أن يتوجب عليهم العمل للارتقاء مجدداً، من أجل استعادة طبيعتهم الإلهية الحقيقية بوعي كاملٍ وتجسيدها قدر الإمكان.

لم يظهر قط مُصلحٌ عظيمٌ للعالم - ممن وصل إلينا ذكرهم عبر الأجيال - إلا وكان (أ) تجلياً مباشراً لـ "اللوغوس" (بأي اسم عرفناه به)، أي تجسيداً جوهرياً لأحد "السبعة"، أو "الروح الإلهي ذي الطبيعة السباعية"؛ و(ب) ممن سبق لهم الظهور في دوراتٍ زمنيةٍ غابرة. ... زرادشت، ... والريشي⁸

والمانو⁹، ... وكريشنا وبوذا، ... وأوزيريس، ... وتحوت-هرمس، ... ويسوع (بالعبرية: يشوع) الناصري... توضح العقيدة الباطنية ... أن كلاً من هؤلاء (وغيرهم كثيرين) قد ظهرُوا أولاً على الأرض كواحدةٍ من القوى السبع لـ "اللوغوس"، متخذين هيئة إلهٍ أو "ملك" (أي رسولٍ)؛ ثم، بعد امتزاجهم بالمادة، عادوا للظهور تبعاً في صورة حكماء ومعلمين عظام، وهم الذين "علّموا العرق البشري الخامس.

[أي العرق "الآري" أو الهندو-قوقازي]، وبعد أن قام بتوجيه العرقين السابقين [أي العرق الأطلنطي، وما سبقه، العرق الليموري]، وحكم خلال حقبة "السلالات الإلهية"، ضحى أفرادُه في نهاية المطاف بأنفسهم، ليولدوا من جديد في ظروف متنوعة من أجل خير البشرية وخلصها في فترات حرجة معينة؛ إلى أن صاروا في تجسيداتهم الأخيرة، من الناحية الواقعية، مجرد "أجزاء من جزء" على الأرض، رغم كونهم في الحقيقة "الواحد الأسمى" في الطبيعة. هذه هي ميتافيزيقا نشأة الآلهة¹⁰ و.... كل "قوة" من بين "القوى السبع" تتولى -بعد أن تتخذ طابعاً فردياً- مسؤولية أحد عناصر الخليفة وتفرض سيطرتها عليه... (ه. ب. ب، "العقيدة السرية"، المجلد الثاني، ص 358-359).

⁹ Manus.

¹⁰ Theogony.

كما رأينا في أحد الاقتباسات المذكورة أعلاه، وُصِف يسوع بأنه "فانٍ". لكن الكيان الداخلي الذي تجسّد في هيئة يسوع هو واحدٌ من الخالدين الحقيقيين.